

النصيحة في القرآن الكريم
دراسة مصطلحية وموضوعية

إعداد

أ.د. أحمد سعد الخطيب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر



١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م



بسم الله الرحمن الرحيم

النصيحة في القرآن الكريم

– دراسة مصطلحية وموضوعية–

أحمد سعد الخطيب

القسم: التفسير وعلوم القرآن الكلية:القرآن الكريم، الجامعة: القاسمية، بالإمارات العربية المتحدة.

البريد الإلكتروني: asaad99999@yahoo.com

ملخص البحث: القرآن الكريم منذ نزل على النبي صلى الله عليه وسلم، قد أحدث ثورة لغوية، بما أضفاه على اللغة من ثراء في المعنى، وتطور في الدلالة، وربما تحول في بعض الأحيان، كالمفاهيم الشرعية، فإنها تعتبر تحولا كاملا من الدلالة اللغوية إلى الدلالة المصطلحية الشرعية.

ومن قديم والعلماء يعتنون بالدلالة القرآنية لكلمات القرآن، وبين أيدينا كتاب المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني شاهد على ذلك.

والبحث يهتم بالدراسة المصطلحية، لأن الدراسة المصطلحية تعد مدخلاً أهم للدراسة الموضوعية، بل هي جزء أصيل منها، كان الدرس الموضوعي للآيات التي وردت فيها مادة نصح، أمرا مهما ومتمما للدرس المصطلحي.

وأنبياء الله عليهم السلام سادة الناصحين، فمن نوح عليه السلام ونصيحته إلى هود عليه السلام ونصيحته، فصالح عليه السلام ونصيحته وشعيب عليه السلام ونصيحته. ثم كانت سنة الله التي لا تتخلف في إهلاك الظالمين وإنجاء المؤمنين.

ثم سلك طريقهم في النصح أتباعهم من الصالحين المشفقين على أقوامهم.

ولا شك أنه كانت هناك نصائح كاذبة خادعة مثل ما كان من اللعين إبليس.

الكلمات المفتاحية: الدلالات القرآنية– التطور المصطلحي– مصطلح النصيحة– نصائح الأنبياء– نصائح المخلصين– نصائح كاذبة.

Advice in the Noble Qur’an - a terminological and objective study

Ahmed Saad Al-Khatib
College of the Holy Quran Al Qasimia University
Email: asaad99999@yahoo.com

Research Summary:

The Glorious Qur’an, since it was revealed to the Prophet (PBUH) has brought about a linguistic revolution, with which it has added to the language in terms of richness in meaning, and development in semantics. Sometimes it may also transform to another concepts, such as legal concepts, which are considered a complete transformation from linguistic connotation to legal terminological one.
Since ancient times, scholars have taken care of the Qur’anic significance of the words of the Qur’an, so we have now a book like “Al-Mufradat fi Gharib al-Qur’an” by Raghib al-Asfahani, as an example for that.
This research is concerned with the terminological study, because it is an important entry point to the objective study, rather it is an integral part of it.
The prophets of God, peace be upon them all, are the top role models of counsellors. From Noah, peace be upon him, and his advice, to Hud, peace be upon him, and his advice, Saleh, peace be upon him, and his advice, and Shuaib, peace be upon him, and his advice. Then it is the God's destiny that does not delay is to destroy the oppressors and save the believers.
Then their righteous followers followed their path in advising their people and were compassionate towards them.
There is no doubt that there were false and deceptive advice, as was case of the accursed Satan.

Keywords: Quranic connotations - terminological development - advice term – the advice of the prophets – the advice of the faithful - false advice.

افتتاحية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين.

أما بعد،

فإن القرآن الكريم منذ نزل على النبي صلى الله عليه وسلم، قد أحدث ثورة لغوية، بما أضفاه على اللغة من ثراء في المعنى، وتطور في الدلالة، وربما تحول في بعض الأحيان، كالمفاهيم الشرعية، فإنها تعتبر تحولا كاملا من الدلالة اللغوية إلى الدلالة المصطلحية الشرعية.

ومن قديم والعلماء يعتنون بالدلالة القرآنية لكلمات القرآن، وبين أيدينا كتاب المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني شاهد على ذلك. كما أن المعاجم اللغوية غير المختصة بكلمات القرآن اعتنت بذلك أيضا في إطار اهتمامها بمفردات اللغة على جهة العموم، حتى جاء العصر الحديث واتجهت همم بعض الباحثين(١) إلى الدرس الأدبي للقرآن الكريم بإيعاز من صاحب المنهج وهو الشيخ أمين الخولي.

على أن هذا المنهج قد خطا خطوات واسعة على يد حسن المصطفوي في كتابه **(تحقيق كلمات القرآن الكريم)** وذلك بسبر الكلمة القرآنية في عدد من معاجم اللغة، ثم تتبع مواردها في استعمال القرآن الكريم، للخلوص إلى معنى جامع لها يعتبره الأصل.

ثم خطا المنهج خطوات أوسع من تلك من خلال الجهد الذي يبذله معهد الدراسات المصطلحية بالمملكة المغربية، وقد أخرج هذا المعهد جملة من البحوث والدراسات القيمة الموصولة بمصطلحات القرآن بمنهج شمولي استيعابي لا يكتفي بالمفردة القرآنية محل الدراسة فحسب ولكن يضم إلى ذلك الاهتمام بضمائمها وعلائقها وتراكيبها وموضوعاتها.

---

١ – مثل الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ في تفسيرها البياني للقرآن الكريم.

وهي تجربة جديرة بالاحترام، وعلى خطاها كتبت بحثي هذا "**النصيحة في القرآن دراسة مصطلحية وموضوعية**" وخصصت المبحث الأول منها للدراسة المصطلحية.

ولست أدعي لدراستي هذه تمام المنهج المصطلحي المغربي ولكنها محاولة رضيت بأن تسدد وأن تقارب حيث استعصى التمام، لضيق المقام.

هذا، ولأن الدراسة المصطلحية تعد مدخلاً أهم للدراسة الموضوعية، بل هي جزء أصيل منها، كان الدرس الموضوعي للآيات التي وردت فيها مادة نصح، أمرا مهما ومتمما للدرس المصطلحي، وهو ما كان منا في المبحث الثاني في هذه الدراسة.

هذا والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المبحث الأول

مفهوم النصيحة دراسة مصطلحية

المطلب الأول: النصيحة في اللغة:

هذا الاسم النصيحة يرجع معناه في اللغة إلى الخلوص والنقاء والنصاعة والأمانة، وهو بذلك نقيض الغش وكل ما يؤدي إليه.

قال صاحب اللسان: نَصَحَ الشيءُ خَلَصَ والناصحُ الخالص من العسل وغيره وكل شيءٍ خَلَصَ فقد نَصَحَ.... والنُّصْح نقيض الغِشّ(١).

وإذا كانت النصيحة بهذا المعنى، تعني تفكيك أجزاء الشيء لنفي الخبيث عنه والإبقاء على الطيب، أو نفي الرديء والإبقاء على الجيد ، فإنها على وجه آخر في اللغة تعني، الملاءمة والمواءمة بين شيئين على سبيل الإصلاح ودفع الخلل.

وقد جمع بين هذين الوجهين الفيروز ابادي في البصائر وقال: النصيحة: كلمة جامعة مشتقة من مادة "ن ص ح" الموضوعة لمعنيين: **أَحدهما** الخلوصُ والنقاءُ، والثانى: الالتئام والرفاءُ. يقال: نصح الشىءُ: إِذا خَلَص، ويمكن أَن يكونَ النُّصْح والنَّصِيحة من هذا المعنى، لأَنَّ الناصح يَخْلُص للمَنْصوح له عن الغش.

والمعنى الثانى: نَصَحَ الثوبَ نَصْحاً: خاطَهُ وكذلك تَنْصَّحه، ... والمِنْصَحَةُ: المِخْيَطَةُ. والمِنْصَحُ: المِخْيَطَ. وفيه مَتَنَصَّح لم يُصْلِحْه، أَى موضع خِياطَة ومُتَرَقَّعَ؛ ويمكن أَن تكون النصيحة من هذا المعنى: لأَن الناصح يرفَأُ ويُصْلح حالَ المَنْصوح له، كما يفعل الخَياط بالثوب المحروق(٢).

١- لسان العرب مادة: نصح.

٢- بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز مادة نصح.

وقال ابن حجر في الفتح نقلا عن المازري: وقال المازري النصيحة مشتقة من نصحت العسل إذا صفيته يقال نصح الشيء إذا خلص ونصح له القول إذا اخلصه له أو مشتقة من النصح وهي الخياطة المنصحة وهي الابرة والمعنى أنه يلم شعث أخيه بالنصح كما تلم المنصحة ومنه التوبة النصوح كأن الذنب يمزق الدين والتوبة تخيطه ...(١).

وعلى هذا فإنه يمكننا القول بأن لفظ النصيحة في اللغة له معنيان يتكاملان فيما بينهما:

الأول: تفكيك أجزاء الشيء لتمييز طيبه من خبيثه ، وجيده من رديئه.

الثاني: إصلاح العيب وتسديد النقص، ليبدو الشيء ناصعا لا خلل فيه بعد أن كان ناقصا معيبا.

أما ابن فارس في معجم مقاييس اللغة، فإنه قد مزج بين هذين المعنيين، **ليردهما إلى أصل واحد لا أصلين ويقول:** (نصح) النون والصاد والحاء أصلٌ يدلُّ على ملاءمةٍ بين شيئين وإصلاح لهما. أصلُ ذلك النَّاصح: الخَيّاط. والنِّصاح: الخَيطُ يُخاط به.. ومنه النُّصح والنَّصيحة: خِلاف الغِشّ. ونَصَحْتُه أنْصَحُه. وهو ناصح الجيْب لمثَلٍ، إذا وُصِف بخُلوص العمل والتَّوبة النَّصُوح منه، كأنَّها صحيحةٌ ليس فيها خَرْقٌ ولا ثُلْمَة(٢).

وما فعله ابن فارس هو عملية دمج بين المعنيين، بلحاظ أنهما متوافران في مثل عمل الخياط الذي ينفي العيب ثم يصلح الثوب ومن هنا سمي ناصحا.

١- فتح الباري: ابن حجر ١٣٨/١.

٢- معجم مقاييس اللغة، مادة: نصح.

المطلب الثاني

النصيحة في الاصطلاح

قال الجرجاني: النصيحة هي الدعاء إلى ما فيه الصلاح والنهي عما فيه الفساد[١]. وقال الخطابي: النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له[٢].

والمراد بحظ المنصوح له: أي صلاحه ونفعه وخيره، وهو ما أفصح عنه تعريف الراغب الأصفهاني للنصيحة بأنها: تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه[٣].

وأفصح عنه البدر العيني أيضا حين نقل تعريف الخطابي السابق ثم قال: حيازة الحظ للمنصوح له :هو إرادة صلاح حاله وتخليصه من الخلل وتصفيته من الغش[٤].

وقال ابن الأثير: النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة هي إرادة الخير للمنصوح له[٥].

١- التعريفات ص: ٣٠٩.

٢- ينظر: فتح الباري - ابن حجر ١ / ١٣٨.

٣- المفردات للراغب مادة نصح ص ٤٩٤.

٤- عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٠ / ٢٦، بترقيم الشاملة آليا): (باب العبد إذا أحسن عبادة ربه ونصح سيده) أي هذا باب في بيان فضل العبد أو في بيان ثوابه إذا أحسن عبادة ربه بأن أقامها بشروطها قوله ونصح من النصيحة وهي كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له وهو إرادة صلاح حاله وتخليصه من الخلل وتصفيته من الغش.

٥- النهاية في غريب الحديث.

ونعود للخطابي الذي علل حكمه على لفظة النصيحة بأنها كلمة جامعة بقوله: وهي من وجيز الكلام بل ليس في الكلام كلمة مفردة تستوفى بها العبارة عن معنى هذه الكلمة(١).

وهو ما أكده كثير من العلماء ومنهم ابن الأثير في النهاية الذي جزم بما سبق للخطابي أن جزم به قائلا: فليس يمكن أَن يعبر عن هذا المعنى بكلمة واحدة تجمع معناها غيرها(٢).

١- ينظر: فتح الباري، ابن حجر ١/١٣٨.

٢- النهاية في غريب الحديث.

المطلب الثالث

النصيحة في استعمال القرآن

قال الراغب: النصح تحرى فعل أو قول فيه صلاح صاحبه. والراغب إذ يقول هذا يتتبع موارد النصح في الكتاب العزيز بمختلف اشتقاقاته ليرده إلى هذا المعنى.

ومآل ذلك عنده إلى أن المراد باللفظ لغة الإخلاص والإحكام والإتقان، وهو ما جعله يتردد في المراد بالنصوح في قوله تعالى: ﴿ **تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا** ﴾(١) فقال: هو من أحد هذين: إما الإخلاص، وإما الإحكام، ويقال نصوح ونصاح نحو ذهوب وذهاب(٢).

وأما المصطفوي في كتابه تحقيق كلمات القرآن الكريم ، فيرد لفظ النصح أو النصيحة إلى الخلوص من الغش سواء كان في موضوع أو قول أو عمل أو في أمر معنوي(٣).

صيغ النصيحة ومواردها في القرآن الكريم ودلالاتها:

وردت مادة نصح في القرآن الكريم على صيغ شتى لكل منها دلالتها، فقد جاءت فعلا ماضيا، ومضارعا، ومصدرا، واسم فاعل، وعلى صيغة مبالغة.

١- سورة التحريم، من الآية (٨).

٢- المفردات للراغب.

٣- التحقيق في كلمات القرآن الكريم للمصطفوي مادة: نصح.

واللافت -وهو من خصوصية القرآن الكريم- في استعمال (نصح) ومشتقاتها، تعديتها باللام دائما، مع أن المعاجم تذكر وجهين فيها، إذ تجيز: نصحته حيث اللفظ متعديا إلى مفعوله بنفسه.

كما تجيز نصحت له، متعديا بحرف الجر (اللام) وهو الاستعمال الأثير لدى القرآن الكريم، وهو الأفصح بلا ريب.

قال صاحب لسان العرب: والنُّصْح نقيض الغِشّ مشتق منه نَصَحه وله نُصْحاً ونَصِيحة ونَصاحة ونِصاحة ونَصاحِيةً ونَصْحاً وهو باللام أَفصح[1].

وهاكم تفصيل موارد هذه الصيغ في الكتاب العزيز، مرتبا على مراتب الاشتقاق مبتدئًا بأصل المادة وهو الفعل الماضي ثم المضارع ثم المصدر ثم اسم الفاعل ....وإن لم يكن كذلك في الواقع، لأننا سنرى أن التعبير بالماضي في النصين الآتيين، إنما كانا في نهاية المطاف، **لسر سوف نعرفه:**

أولا: ورودها فعلا ماضيا:

وردت مادة (نصح) في القرآن الكريم فعلا ماضيا متعدية باللام مرتين مع نبيي الله صالح وشعيب عليهما السلام. قال تعالى: ﴿ **فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٧٧ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٧٨ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا**

١- لسان العرب مادة نصح.

تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[١]. وواضح أنه عليه السلام قد قال هذا بعد أن يئس من إيمانهم ، مبديا أنه قد أعذر منهم حيث أبلغهم الرسالة ونصح لهم وأدى ما عليه ، لكنهم استحقوا عذاب الله الذي استأصلهم لما عقروا الناقة معجزته إمعانا في الكفر وتحديا له.

وهو نفسه الذي حصل مع شعيب عليه السلام ، كما يدل له قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾[٢].

فالتعبير بالماضي إذن إعذار من النبيين الكريمين بأنهما قد اجتهدا في أداء ما عليهما من حق البلاغ وحق النصح لكن الهداية من الله إذ لا تلازم بين إبداء هذا الحق وبلوغ نتيجته، فالقيام به واجب الداعي، وبلوغ النتيجة توفيق الله عز وجل.

وهذا ما أجمل القرآن الحكم به في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[٣].

١- سورة الأعراف، الآية (٧٧-٧٩).
٢- سورة الأعراف، الآية (٩٠- ٩٣).
٣- سورة القصص، الآية (٥٦).

وأما صيغة {نصحوا } في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[1] وإن كانت فعلا ما ضيا، إلا أن دخولها في حيز {إذا}. وهي ظرف لما يستقبل من الزمان، يخرجها عن معنى المضي، مهما كانت ضاربة في صورة الماضي.

ثانيا: ورودها فعلا مضارعا:

ووردت المادة فعلاً مضارعًا {أنصح} مرتين مع نبي الله نوح عليه السلام.

وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[2].

وفي قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[3].

١- سورة التوبة، الآية (٩١).

٢- سورة الأعراف، الآية (٥٩-٦٢).

٣- سورة هود، الآية (٣٢-٣٤).

ودلالة المضارع هنا هو إفادة التجدد والحدوث، فإن نوحا عليه السلام أطول الأنبياء عمرا في الدعوة إلى الله ، وقد ذكر القرآن الكريم مدة دعوته في قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا .... ﴾ (١) وعلى طول هذه المدة فإنه لم يكل ولم يمل من تجديد دعوته قومه ونصحهم رغم إعراضهم وعنادهم.

وهكذا يجب على الداعي ألا يصده إعراض المدعوين عن تجديد النصح لهم مرة بعد مرة ، بلا يأس ولا ملل، فعسى أن تصادف النصيحة وقتا يكون المدعو فيه أكثر استعدادا لقبول النصيحة، بينما هو في أوقات أخرى لا يكون مهيئًا لقبولها، ولذا كان من دأب الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتخول أصحابه بالموعظة وألا يثقل عليهم فيها مخافة السآمة.

فقد أخرج الشيخان واللفظ للبخاري عن أبي وائل، قال: كان عبد الله –أي ابن مسعود رضي الله عنه– يذكر الناس في كل خميس فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم ؟ قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم، وإني أتخولكم بالموعظة "كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا بها، مخافة السآمة علينا"(٢).

والاتفاق بين إسداء النصح وتهيؤ المدعو لقبوله إنما يقع نتيجة لتجدد النصح مرة بعد مرة مع تحري الأوقات والأحوال المناسبة، وقبل ذلك كله استعانة الداعي بالله وابتهاله إليه بأن يوفقه في دعوته ونصحه، وأن يوفق المدعو إلى القبول، فبغير توفيق الله لن يكون نصح ولا انتصاح.

١– سورة العنكبوت، الآية (١٤).

٢– صحيح البخاري –كتاب العلم– باب من جعل لأهل العلم أياما معلومة – حديث:٧٠ ، صحيح مسلم– كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب الاقتصاد في الموعظة – حديث:٥١٥٤.

وهذا ما عبر عنه المورد الثاني لصيغة المضارع ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1].

والمضارع هنا مسبوق بأن المصدرية التي تكوّن مع المضارع بعدها مصدرا مؤولاً.

وقبل أن تذهب نفس القارئ كل مذهب حول معنى قوله تعالى: ﴿ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ فيسأل: فما جدوى النصيحة إذن مع إرادة الغواية ؟ قلنا: ليس ذلك من الغي بمعنى الضلال ليكون الإغواء هنا إضلالا، بل من الغوى بمعنى الهلاك ليكون الإغواء هنا إهلاكا وتعذيبا[2]. وبه فسر شيخ المفسرين الآية هنا فقال:

﴿ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾، يقول: إن كان الله يريد أن يهلككم بعذابه .. وحكي عن طيئ أنها تقول: "أصبح فلان غاويًا": أي مريضًا.

١- سورة هود، الآية (٣٤).

٢- قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة٤ / ٣٩٩) : (غوي) الغين والواو والحرف المعتلّ بعدهما أصلانِ: أحدهما يدلُّ على خِلاف الرُّشد وإظلام الأَمْر، والآخرُ على فسادٍ في شيء. فالأوَّل الغَيّ، وهو خلاف الرُّشد .... والأصل الآخر: قولهم: غَوِيَ الفَصيلُ، إذا أكثر من شُربِ اللّبَن ففَسَد جوفُه. والمصدر الغَوَى.أ.هـ و ذلك يؤدي إلى الهلاك .

وحكي عن غيرهم سماعًا منهم: "أغويت فلانًا"، بمعنى أهلكتَه. و"غَوِيَ الفصيل"، إذا فقد اللبن فمات. وذُكِر أن قول الله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[١]، أي هلاكًا[٢].

وهذا الكلام من نوح عليه السلام يمكن أن يكون قد قاله بعد أن أيقن بنزول عذاب الله بهم، وهو حال لم يعد ينفعهم معه نصحه لهم، بعد أن انقطعت معاذيرهم وانقضى إمهال الله لهم.

ويمكن أن يكون هذا الكلام منه عليه السلام بعد أن يئس من انتصاحهم وهدايتهم بعد هذا العمر الطويل في الدعوة.

وهنا أستعير **كلام صاحب المنار** في تفسير الآية ، فقد قال: **والمعنى:** إن نصحي لكم لا ينفعكم بمجرد إرادتي له فيما أدعوكم إليه، وإنما يتوقف نفعه على إرادة الله –تعالى–، وقد مضت سنته –تعالى– بما عرف بالتجارب أن نفع النصح له شرطان أو طرفان، هما الفاعل للنصح والقابل له، وإنما يقبله المستعد للرشاد، ويرفضه من غلب عليه الغي والفساد، بمقارفة أسبابه من الغرور بالغنى والجاه والكبر، وهو غمط الحق واحتقار المتكبر لمن يزدري من الناس، وتعصبه لمن كان عليه الآباء والأجداد واتباع الهوى وحب الشهوات المالنة من طاعة الله، فمعنى إرادة الله –تعالى– لإغوائهم: اقتضاء سنته فيهم أن يكونوا من الغاوين، لا خلقه للغواية فيهم جزافا أُنُفا –أي ابتداء– بغير عمل ولا كسب منهم لأسبابه.."[٣].

١– سورة مريم، الآية (٥٩).

٢– تفسير الطبري ١٥/٣٠٥ وبعض اللغويين يردون معنى الغي إلى الفساد – الهلاك– أيضا قال ابن الأعرابي كما في لسان العرب: ابن الأَعرابي الغَيُّ الفَسادُ. أي الهلاك.

٣– تفسير المنار ١٢ / ٥٩

ثالثا: ورودها مصدرا صريحا

ورد (نصح) في الكتاب العزيز مصدرا صريحا مرة واحدة مع نبي الله نوح عليه السلام، وذلك في الآية سالفة الذكر ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ﴾.

فالنُصْحُ في قوله {نُصْحي} هو مصدر نَصَحَ في الماضي. وهو المصدر الصريح، وفي الآية مصدر مؤول سلفت الإشارة إليه وهو قوله {أَنْ أَنصَحَ} قال ابن عاشور: المراد بالنصح هنا هو ما سمّاه قومه بالجدال[١]، أي هو أولى بأن يسمّى نصحاً...[٢].

رابعا: وروده اسم فاعل:

وورد اسم فاعل في عدد من الآيات بعضها ورد مع بعض الأنبياء، وورد بعضها مع غيرهم.

وأعني بالذي ورد مع بعض الأنبياء ما جاء في قوله تعالى عن نبي الله هود عليه السلام: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾[٣].

١- أي في قولهم الذي حكاه القرآن: [يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا] (هود: ٣٢).

٢- التحرير والتنوير ٦١/١٢.

٣- سورة الأعراف، الآية (٦٥- ٦٨).

ودلالة اسم الفاعل هنا هي الاستمرار والمداومة على بذل النصح وإسدائه للمدعوين، حتى لكأن هذا النصح وصف راسخ فيه ثابت عليه لا يفارقه.

وهكذا يجب أن يكون الداعي مرتديا ثوب النصيحة أبدا لا يخلعه، فلا يصده عن النصيحة صاد، ولا يفتره عنها ملل ولا سآمة.

كما أن النص الكريم الذي نحن بصدده يفيض علينا بدعائم النص وعواضده، إذ منها إظهار الشفقة على المنتصحين والحرص على هدايتهم، وهو مدلول قوله {يَا قَوْمِ} رغم أنهم اتهموه عليه السلام بالسفاهة.

ويفيض علينا النص الكريم أيضا بأن الداعي يجب أن يرد شبهات المدعوين بالحسنى، فحين اتهمت عاد نبيها هودا بالسفاهة، ما كان منه إلا أن وصف نفسه بالرسول وبالناصح الأمين، وفي ذلك أبلغ رد على كلامهم، فكأنه قال لهم: إن ما اتهمتموني به من السفاهة ليس بي، وهي تهمة كاذبة، فما هي إلا رسالة ربي أبلغتكم إياها، مخلصا لكم راجيا هدايتكم، لأني ناصح أمين.

وتتوالى فيوضات النص الكريم لتلفتنا إلى أهمية الأمانة كدعامة لابد منها عند التناصح ، ليصح الغرض ويتحقق الإخلاص، فنصيحة مفتقدة للأمانة، لا قيمة لها ولا وزن، وهي غير مأمونة الغرض، فقد يريد بها مسديها نفعا لنفسه أو لمن يريد، وليس إصلاح المنتصح.

ولأنه قد سلف التنبيه إلى أن صيغة اسم الفاعل (ناصح) دالة على ثبات الوصف في الفاعل ورسوخه، فقد تكررت في عدد من الآيات القرآنية، وصفا خلعه بعض الخلق على أنفسهم بحق، أو بغير حق.

١- فمثلا، في قوله تعالى:﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾(١) يقسم إبليس لآدم عليه السلام وزوجه أنه لهما ناصح.

١- سورة الأعراف، الآية (٢١).

ولأنه كاذب في دعواه ويعلم يقينا أن آدم لن ينخدع له بسهولة بعد أن رأى بنفسه عصيانه لربه، فقد أكد اتصافه بالنصح بعدة مؤكدات، إيغالا في إيهام كونه صادقا في دعواه.

وهذه المؤكدات هي: القسم وإنَّ التوكيدية واللام الداخلة على الخبر. وتعليل ذلك أنه لم يكن مظنة التصديق فاحتاج إلى هذه المؤكدات.

وإذا أضيف إلى ما ذُكِر ما قد يفيده القصر الادعائي في تقديم الجار والمجرور {لكما} من إيهام أنه لا ناصح لهما غيره لأنه معني بشأنهما ، فإن الصورة تتكامل لتبرز كم كان إبليس مزعزع الثقة، وهو يصف نفسه بما ليس فيه من إخلاص النصح لآدم عليه السلام وزوجه.

٢- وهو الأمر ذاته مع إخوة يوسف عليه السلام حين حاولوا أن ينزعوا عن أبيهم شكه فيهم، وخوفه على ابنه يوسف عليه السلام منهم، فقد عمدوا إلى تأكيد وصفهم بالنصح ببعض المؤكدات فقالوا كما حكى القرآن ﴿ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴾[(١)]. والمؤكدات هنا هي إنَّ التوكيدية واللام الداخلة على الخبر.

إضافة إلى ما توحيه صيغة الفاعل من رسوخ الوصف بالنصح فيهم ومداومتهم عليه، ثم تقديم الجار والمجرور {له} وهو قصر ادعائي يوهم أنه لا ناصح له غيرهم بقرينة أنهم إخوته وأحرص الناس عليه. إن هذا الإصرار منهم على تأكيد أنهم ناصحون لأخيهم، يشبه كثيرا إصرار إبليس على تأكيد أنه ناصح لآدم عليه السلام وزوجه.

إن هذا الإصرار في حد ذاته يشي بما كان يخفيه كل منهم من تدبير ومكر وخيانة.

١- سورة يوسف، من الآية (١١).

وهنا تبدو المفارقة بين النصح مع الأمانة الذي ذكره القرآن وصفا لنبي الله هود عليه السلام ﴿وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[١] والنصح مع الخيانة في شأن إبليس وإخوة يوسف.

إن الصدق ينبئ عن نفسه ولذا لم يحتج هود عليه السلام إلى أن يؤكد كلامه بما يخلع عليه وصفا هو في الأصل متحقق فيه، والمدعوون يلمسونه ، لكنهم يعاندونه ، ويعارضون دعوته ، لخلل فيهم وليس فيه. وإنما احتاج إلى ذلك إبليس وإخوة يوسف على طريقة: يكاد المريب أن يقول خذوني.

وبذا نعلم أن الأمانة في النصح لازمة لتسميته نصحا، وأنها مع الخيانة دعوى بلا دليل.

ووردت صيغة اسم الفاعل كذلك في موضعين آخرين في الكتاب العزيز هما:

١–في قوله سبحانه: ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾[٢] وقائل: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ هي أخت موسى عليه السلام[٣].

وعلى أية حال فالصدق الذي بدا على أخت موسى عليه السلام والإخلاص في النصح والحاجة إلى الانتصاح كان سببا في قبول فرعون وأهل بيته النصيحة والرضا بأم موسى عليه السلام مرضعا له، وهم لا يشعرون أنها

١- سورة الأعراف، الآية (٦٨).

٢- سورة القصص، الآية (١٢).

٣- ينظر تفسير الطبري ١٩ / ٥٣٣.

أمه حقيقةً ، ليتحقق بذلك وعد الله في تسكين قلب أم موسى عليه السلام وإطفاء نار فؤادها التي كانت قد تأججت حزنا على وليدها.

قال تعالى: ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1] ، والذي يمكن أن نتعلمه من هذا بجانب لزوم الإخلاص والأمانة في النصيحة، أهمية تبصر حاجة المدعو إلى النصيحة، فإن وجدت، فهي الغنيمة التي لا تترك والفرصة التي لا تفوت، وهي أرجى حالات النصح، فإذا صادفت النصيحة مع ذلك صدق الداعي، وتوفيق الله إياه على أن يمس حاجة المنتصح، فقد تكاملت عوامل النجاح.

والموضع الثاني في قوله سبحانه: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2]. وهذه نصيحة وافية، تكاملت فيها الأركان من إخلاص الناصح وإبراز شفقته على المنتصح، وصدق النصيحة، وقبول المنتصح.

فما إن أشار الناصح على موسى عليه السلام بالخروج حتى خرج، لما لمسه من أمانة الناصح وصدقه.

خامسا: وروده صيغة مبالغة على وزن فَعُول:

١- سورة القصص، الآية (١٣).

٢- سورة القصص، الآية (٢٠-٢١).

وهذا قد ورد في آية واحدة وصفا للتوبة الخالصة وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾[١]، و(فَعُول) إحدى صيغ المبالغة التي يدل الوصف بها على معنى زائد عن أصل الفعل. أي: توبة بالغة في النصح، وقال الفراء: نصوحاً من صفة التوبة والمعنى توبة تنصح صاحبها بترك العود إلى ما تاب منه، وهو أنها الصادقة الناصحة ينصحون بها أنفسهم[٢].

ولن تكون التوبة نصوحا حتى تستوفي شروطها وهي:

١- الإقلاع عن الذنب.

٢- الندم على الفعل.

٣- العزم على عدم العود إلى الفعل مرة أخرى.

٤- رد المظالم إلى أهلها فيما يتعلق بحقوق الآدميين.

٥- أن تقع قبل وقت الغرغرة.

١- سورة التحريم، الآية (٨).

٢- ينظر تفسير الفخر الرازى.

المطلب الرابع

الفرق بين النصيحة وما يقاربها من الألفاظ

سبق بيان أن النصيحة كلمة جامعة وأنها من وجيز الكلام بل ليس في الكلام كلمة مفردة تستوفى بها العبارة عن معنى هذه الكلمة...[١]. ومن ثم فالنسبة بينها وبين ما يقاربها من ألفاظ كالموعظة والوصية والتذكير، هي العموم والخصوص المطلق[٢]. **وهاك البيان:**

الفرق بين النصيحة والموعظة:

أما النصيحة فلا تكون إلا في تحري ما فيه الخير والصلاح لصاحبه قولا كان أو فعلا. وأما الموعظة، فهي من الوعظ وهو "زجر مقترن بتخويف. وقال الخليل هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب .."[٣].

وعلى هذا فالنسبة بينهما العموم والخصوص المطلق فكل وعظ نصيحة وليس كل نصيحة وعظا. فيتفقان في قول الخير ويفترقان في فعله إذ الفعل نصيحة وليس وعظا.

١- ينظر: فتح الباري، ابن حجر ١/١٣٨.

٢- مصطلح (العموم والخصوص المطلق) عند المناطقة هو أحدى النسب الأربع بين كل كليين وهذه النسب هي: أن كل شيئين حقيقتهما أما متساويان يلزم من وجود كل واحدة وجود الأخرى وعكسه كالإنسان والضاحك، أو متباينتان لاتجتمعان في محل واحد كالإنسان والفرس، أو أحدهما أعم مطلقاً والأخرى أخص مطلقاً توجد أحدهما مع وجود كل أفراد الأخرى بلا عكس كالحيوان والإنسان أو كل واحدة منهما أعم من وجه وأخص من أخر توجد كل واحدة مع الأخرى وبدونها كالبياض والحيوان (ينظر: شرح الكوكب المنير: ١/٧٠).

٣- المفردات في غريب القرآن، ص: ٥٢٧.

الفرق بين النصيحة والوصية:

أما النصيحة فقد عرفتها. وأما الوصية فهي التقدم إلي الغير بما يعمل به مقترنا بوعظ من قولهم أرض واصية متصلة النبات(١).

والنسبة بينهما بناء على تعريف الوصية هذا، تماما كالنسبة بين النصيحة والموعظة، فكل وصية نصيحة، وليس كل نصيحة وصية.

اللهم إلا ما ذكره العسكري في الفروق من كون "الوصية تكون بالحسن والقبيح لأنه يجوز أن يوصي الرجلُ الرجلَ بفعل القبيح كما يوصي بفعل الحسن(٢).

وبناء عليه تكون النسبة بينهما العموم والخصوص الوجهي، إذ هما يجتمعان في الوصية بالخير، ويفترقان في الوصية بالشر.

وهكذا فإنك لست بواجدٍ لفظا يوازي النصيحة ويستوعب ما تستوعبه كما جزم بذلك العلماء.

١- المفردات في غريب القرآن، ص: ٥٢٥.

٢- الفروق اللغوية، ص: ٧٨.

المبحث الثاني

الناصحون في القرآن ونصائحهم وموقف المنتصحين منها

دراسة موضوعية

المطلب الأول: أنبياء الله ونصائحهم والموقف منها

أكثر ما ورد لفظ النصح ومشتقاته في القرآن الكريم، مع أنبياء الله عز وجل وعلى لسانهم، وهذا يكشف عن طهر ونقاء اللفظ، هذا النقاء الذي حاول أن يستغله إبليس اللعين في إغواء آدم عليه السلام، كما عرفنا ذلك سالفا، وسنزيده توضيحا لاحقا إن شاء الله.

ولنبدأ الآن مع الأنبياء ونصائحهم

أولا: نوح عليه السلام ونصيحته:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ﴾[1].

١- سورة الأعراف، الآية (٥٩-٦٤).

إن نوحا عليه السلام هو أطول الأنبياء عمرا في الدعوة إلى الله، لقوله سبحانه: ﴿فلبث...﴾ وظل ينصح قومه كل هذه المدة الطويلة، فماذا كانت نصيحته ؟

إن نصيحته عليه السلام كانت الدعوة إلى توحيد الله بالعبادة، إذ لا يستحق العبادة أحد سواه. وهو ما يكشف عنه مطلع النص الذي معنا ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ ثم ما يتبع هذا التوحيد من تقوى الله وطاعته فقال لهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[1] وقد استخدم كل وسائل الاستعطاف والاستجداء والتليين والإغراء بنعيم الدارين[2]، لأجل أن ينتصحوا بما فيه الخير لهم في العاجل والآجل ، فما كان جوابهم إلا أن قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فأجابهم ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ

١- سورة نوح، الآية (٢-٣).

٢- هذا ما تكشف عنه هذه الآيات في سورة نوح: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ .

﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ويبدو أنهم خشوا على أنفسهم من سلطان الحق من أن يؤثر فيهم وهم لا يريدون ذلك ، فأبوا إباء شديدا وصموا آذانهم عن دعوته، كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾[1] وعندما نطقوا اتهموه بالضلال قائلين.

ثم كانت سنة الله التي لا تتخلف في إهلاك الظالمين وإنجاء المؤمنين

قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ والذين آمنوا مع نوح عليه السلام ونجوا معه لم يكونوا إلا قليلا كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[2].

ثانيا: هود عليه السلام ونصيحته:

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾[3].

١- سورة نوح، الآية (٧).

٢- سورة هود، من الآية (٤٠).

٣- سورة الأعراف، الآية (٦٥-٦٨).

والموقف من حيث الدعوة والنصيحة من قبل نبي الله هود عليه السلام، لا يختلف عن موقف نبي الله نوح عليه السلام ، فهما وكل الأنبياء المرسلين، قد بعثوا بدعوة التوحيد فلبلغوها ودعوا إليها ونصحوا بها.

﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ ولا يكاد يختلف موقف قومه من دعوته، عن موقف قوم نوح عليه السلام، إلا ما يبدو من تغيير في التهمة، فقوم نوح رموه بالضلال، وقوم هود رموه بالسفاهة واتهموه بالكذب ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وبين هذه التهم جميعها رحم ظاهرة، إذ السفاهة والكذب مردودان إلى الضلال.

ومن ثم فسر الطبري السفاهة بأنها "ضلالة عن الحق والصواب"[١] كما أن الرمي بالكذب تهمة لم ينج منها نوح عليه السلام كما تحدثنا عن ذلك سورة هود: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾[٢]. وكان جوابه عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ وهو ذات الجواب الذي أجاب به نوح عليه السلام قومه.

١- تفسير الطبري ١٢/٥٠٤.

٢- سورة هود، الآية (٢٧).

ثم كانت سنة الله التي لا تتخلف في إهلاك الظالمين وإنجاء المؤمنين، قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾[1]، وقال أيضا: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾[2].

ثالثا: صالح عليه السلام ونصيحته:

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ

١- سورة الأعراف، الآية (٧٢).
٢- سورة هود، الآية (٥٨).

فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[1].

إنه موقف لا يتخلف مع الأنبياء. دعوة على التوحيد﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ يقابله صدود وعناد وجزاء عاجل في الدنيا ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾.

ثم إعذار من الرسول﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾.

ثم كانت سنة الله التي لا تتخلف في إهلاك الظالمين وإنجاء المؤمنين: قال تعالى:﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾[2].

١- سورة الأعراف، الآية (٧٣-٧٩).

٢- سورة هود، الآية (٦٦، ٦٧).

رابعا: شعيب عليه السلام ونصيحته:

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ
مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا
الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا
فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
(٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ
آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا
فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ
طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا
حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ
قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ
نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ
شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ
الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا
لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ
كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ
(٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ

﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾[(١)]. ولن يقال هنا إلا كلام سبق تكراره مع نصيحة الأنبياء الذين سبق ذكرهم ونصائحهم وموقف المنتصحين منها. فالآيات التي معني تجلّي لنا نصيحة شعيب عليه السلام أيضا ودعوته **{اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ ..}**

ثم موقف قومه المعاند من نصيحته وكيف كان عقابهم في الدنيا: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ ثم إعذار من الرسول: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾.

ثم كانت سنة الله التي لا تتخلف في إهلاك الظالمين وإنجاء المؤمنين: قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾[(٢)].

<u>ويفاد مما مضى:</u>

١- أن أهل الكفر نسخ مكرورة من حيث مجافاة الحق ومعاندته، ومن حيث الأساليب وإلقاء التهم الجاهزة على الدعاة والناصحين.

١- سورة الأعراف، الآية (٨٥-٩٣).

٢- سورة هود، الآية (٩٤، ٩٥).

٢- اتفاق الرسالات الإلهية فيما تنصح به وتدعو إليه من توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، بل حتى في الصور اللفظية في الدعوة إلى هذا التوحيد. ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ ﴾.

٣- أمانة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وحرصهم على تبليغ رسالات الله والنصح لأقوامهم ، كما مر ذلك في حديث القرآن عمن تناولهم البحث من الرسل عليهم السلام. والفرق بين إبلاغ الرسالة و النصيحة كما يقول الخازن: هو أن تبليغ الرسالة أن يعرفهم جميع أوامر الله تعالى ونواهيه وجميع أنواع التكاليف التي أوجبها الله تعالى عليهم. وأما النصيحة فهو أن يرغّبهم في قبول تلك الأوامر والنواهي والعبادات ويحذرهم عقابه إن عصوه[١].

٤- ويفاد منها الاطلاع والوقوف على مدى الجهد الجهيد الذي بذله الأنبياء في النصح لأقوامهم في دعوتهم إلى الإيمان والتوحيد ، وهو جهد جدير بأن يؤتسى في الدعوة إلى الله.

٥- كما يفاد كذلك أن سنن الله لا تتخلف في إهلاك الظالمين وإنجاء المؤمنين.

١- تفسير الخازن.

المطلب الثاني

المشفقون ونصحائهم

وفي هذا المطلب سأتناول نصيحة أخت موسى عليه السلام ، ونصيحة مؤمن آل فرعون لموسى عليه السلام.

والجامع بينهما، أن الباعث على النصيحة فيهما، هو الشفقة النابعة من الإيمان وحده في حالة مؤمن آل فرعون، ومن الإيمان والرحم في حالة أخت موسى عليه السلام.

أولا: نصيحة أخت موسى عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[١].

ونصيحة أخت موسى عليه السلام، هي في الواقع إخبار عن حال من سترضع الوليد موسى عليه السلام، وتأكيد أنها ستكون له ناصحة مخلصة، وهي بلا شك تعني أمه عليه السلام.

وكان فؤادها قد انفطر على وليدها حتى فرغ لذكر موسى وحده[٢]، وقد حكى القرآن ذلك في قوله سبحانه: {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا} فما عادت منشغلة إلا به، وهو انشغال تقوده العاطفة وتدفع نحوه الفطرة. رغم أنها

١- سورة القصص، الآية (١١-١٣).

٢- هذا المعنى نقله الطبري عن بعض السلف. ينظر: تفسير الطبري ١٩/٥٢٧.

كانت على ثقة من وعد الله بأنه سيعيده إليها ، وهو الوعد الصادر عن الحق سبحانه حين أمرها بأن تلقيه في اليم.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[1].

فكان التدبير الإلهي، أن يلتقطه آل فرعون، وأن يعمدوا إلى الاحتفاظ به ولدا، أو نافعا، فيستدعون له المراضع فيأبى، ليكون ما ذكرته الآيات:

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أخرج الطبري عن ابن جُرَيج قال: قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ قال: فعلقُوها حين قالت: وهم له ناصحون،

١- سورة القصص، الآية (٧).

قالوا: قد عرفته، قالت: إنما أردت هم للملك ناصحون(١).

ثانيا: نصيحة مؤمن آل فرعون لموسى عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٢) من هذا الرجل؟ وما الذي دفعه إلى النصيحة لموسى عليه السلام؟.

إن منهج حمل آيات القرآن بعضها على بعض، يحتم علينا القول بأن هذا الرجل هو مؤمن آل فرعون، الذي ذكرته سورة غافر في قوله سبحانه:

١- تفسير الطبري ٥٣٤/١٩. وهذا التخلص من أخت موسى عليه السلام راجع إلى ما يعرف عند علماء البلاغة بـ "التوجيه".

وقد قيل في تعريفه: هو إيراد الكلام محتملا لوجهين مختلفين احتمالا على السواء فيهما وهو بذلك غير الإيماء. وقال صاحب خزانة الأدب: التوجيه هو أن يحتمل الكلام وجهين من المعنى احتمالا مطلقا من غير تقييد بمدح أو غيره و هو إبهام المتقدمين أ.هـ وقد ذكره الزركشي في البرهان ، ومثل له بهذه الآية [هَلْ أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ] (القصص: ١٢) حكاية عن أخت موسى عليه السلام. ثم قال: إن الضمير في قوله: "له" يصلح أن يكون لموسى عليه السلام، كما يصلح أن يكون لفرعون، وبذلك تخلصت أخت موسى عليه السلام حين قيل لها انك عرفته بقولها ناصحون للملك. ومثله جواب ابن الجوزي لمن سأله من الأفضل عند النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر أم علي ؟ فقال: من كانت ابنته تحته أ٠هـ فيصح عود الضميرين إلى كل منها. ينظر: مفاتيح التفسير، أحمد سعد الخطيب ١/

٢- سورة القصص، الآية (٢٠، ٢١).

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾[1].

وقد لا يهم معرفة اسم الرجل ، **المهم أنه رجل فيه معنى الرجولية**[2]، بتصرفه هذا، والبحث عن اسمه لن يضيف شيئًا إلى جلال نصيحته لموسى عليه السلام، بالخروج من المدينة خشية أن يقتله فرعون وملأه – وكانوا قد تآمروا واتفقوا على هذا– غير مبال بمآلات هذه النصيحة في حال انكشف أمرها أمام فرعون ، وبهذا يتجلى جلال هذه النصيحة بوصفها تحديا لقوة فرعون الغاشمة، وبكونها تمت بمبادرة فردية مدفوعة بإيمان عميق، قد أزال الخشية من قلبه، وأزال عنه كل هيبة إلا هيبة ذي الجلال والإكرام.

وهكذا الإيمان إذا مس القلوب وملكها، فإنه يفعل الأفاعيل، بحيث لا يكون مكان للأسئلة من نوع: كيف حدث؟ ولماذا جرى؟ ونحوها مما يثير استغرابا وتعجبا.

ولأنها كانت نصيحة صادقة صادرة عن حريص على مصلحته عليه السلام، فقد امتثلها وخرج من المدينة قبل أن يطاله رجال فرعون.

١– سورة غافر، الآية (٢٨).

٢– قال ابن كثير: وصفه بالرّجُولية لأنه خالف الطريق، فسلك طريقًا أقرب من طريق الذين بُعثوا وراءه، فسبق إلى موسى، فقال له: يا موسى [إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ] أي: يتشاورون فيك [لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ] أي: من البلد [إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ] تفسير ابن كثير ٢٢٦/٦.

المطلب الثالث

نصائح كاذبة

وهما هنا نصيحتان بل دعْوَيان:

الأولى: دعوى نصيحة إبليس لآدم عليه السلام.

والثانية: دعوى نصيحة إخوة يوسف عليه السلام له.

وفي الأولى: ورد قول الله تعالى حكاية عن إبليس اللعين: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[1].

مر في الدراسة المصطلحية الكلام عن أسرار التعبير في النص الكريم واستخلاص النتائج من التحليل الدلالي في المفردات والتراكيب. وبقي هنا **أن نفسِّر النص بحسب موضوعه** وبما يتناسب والمقام.

وذلكم أن النصيحة الخادعة التي وجهها اللعين لآدم وزوجه، وهي المفصح عنها في الآيات المذكورة حكاية لقوله: ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ

١- سورة ، الآية (١٩-٢٣).

﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ أي لئلا تكونا ملَكين من الملائكة ، أو ملِكين من الملوك بناء على قراءة كسر اللام وهي متواترة[١]، ولئلا تكونا من الخالدين في الجنة.

وفي سورة طه تأييد لقراءة كسر اللام (ملِكين) **﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾**[٢].

إذن هو إغراء على المعصية مرتديا ثوب النصح والحرص، إغراء بما هو محبب إلى النفس البشرية، وهو الخلود وعدم الموت، وأيضا المُلك أو الملائكية –على اختلاف القراءتين– ومن ذا الذي لا تطمح نفسه إلى واحدة منهما؟ وهو ما ساعد إبليس اللعين على بلوغ مراده من آدم عليه السلام.

وحتى يزيد إبليسُ آدمَ إيهاما بأنه صادق في نصحه، أقسم له ولزوجه أنه لهما {لَمِنَ النَّاصِحِينَ} **قال ابن كثير**: أي: حلف لهما بالله {على ذلك} حتى خدعهما، وقد يخدع المؤمن بالله، فقال: إني خُلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعاني أرشدكما. وكان بعض أهل العلم يقول: "**من خادعنا بالله خُدعنا له**"[٣].

فلما ركن آدم إلى نصيحة اللعين، مغترا بما أبداه من إخلاص في النصح المؤكد بالقسم وبغيره من المؤكدات التي سلف ذكرها، فأكل هو وزوجه من الشجرة التي نهيا عن اقترابها، بعدها مباشرة ظهرت نتيجة الركون إلى نصيحة غير ناصح ، فكان أن **﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا**

١– ينظر: الدر المصون للسمين الحلبي ٢٧٨/٥.

٢– سورة طه، الآية (١٢٠).

٣– تفسير ابن كثير ٣٩٧/٣.

﴿مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ وعندها عوتبا ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وهنا أدركا ما فرط منهما فندما و﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

ومن الدروس المستفادة من القصة ونصيحتها الخادعة:

١- عدم الاغترار بكل ناصح ولو ارتدى ثوب الإخلاص، فما لم يعرف الناصح بالأمانة، فإنه لا يركن إلى نصيحته.

٢- إن العري الذي تعاني منه المجتمعات المعاصرة، والتي تحاول وسائل الإعلام المختلفة الترويج له في البلدان الإسلامية، إنما هو من دسائس الشيطان ووسوسته، ليفسد به المجتمعات، ألم يقسم على إغواء بني آدم قائلا: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وإن كل من يساعد أو يدبر لانتشار العري في بلاد الإسلام إنما هو من أعوان إبليس ومن جنوده.

٣- أنه يجب المسارعة بالتوبة بعد اقتراف الذنب، وهو ما فعله آدم عليه السلام وزوجه، بعد أن انكشف لهما خطأهما حيث ندما و﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فكان أن ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾(١).

١- سورة طه، الآية (١٢٢).

والثانية: وهي دعوى نصيحة إخوة يوسف عليه السلام له.

وهي التي حكاها القرآن في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾[1].

تظهر الآيات ما حاول إخوة يوسف عليه السلام إخفاءه عن أبيهم، وهو تدبير قتل أخيهم يوسف أو نفيه، لا لشيء إلا لأنه كان أحظى بحب أبيه منهم، وهو ما أضرم نار الحسد في قلوبهم، وليته كان من الحسد الذي يبدأ في القلب ولا يخرج عنه، بل يموت فيه أو يبقى محاطا بأسواره، وإن خرج فإلى اللسان لينتهي عند كلمات العتب أو حتى السب، لقد جاوز حسدهم كل هذا، فاستحال حسدًا مقرونًا بالتدبير للانتقام، والاستعداد التام لفعل أي شيء ولو كان قتل الأخ.

ولأنهم دبروا هذا التدبير وهم أبناء نبي، ولأنهم يعلمون عاقبة ما سيفعلون عند ربهم ، فقد ركبوا مركبة التسويف، على طريقة "هذه المرة وكفى وبعدها سأتوب ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ

١- سورة يوسف، الآية (٧-١١).

بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ وما أكثر المعاصي التي ترتكب بمثل هذا التبرير، وما أقل وقوع التوبة بمثل هذه الأماني، والتوبة لا تقع عن تدبير، ولكن عن حرقة ولوعة من ألم الذنب والتقصير.

لكنهم وهم الذين أجمعوا أمرهم على قتل أخيهم ، لبسوا مسوح النصح والإخلاص، وقالوا لأبيهم: ﴿ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾، وقد مر بنا في الدراسة المصطلحية التنبيه على ما في الآية من مؤكدات احتاجوا إلى ذكرها لما أحسوه من شك وارتياب، من أبيهم تجاههم. أو لعلها جاءت على طريقة "يكاد المريب أن يقول خذوني" كما سلف أن قررنا.

وختاما، فإن هذا البحث قد اتخذ من تدبر القرآن قصدا له وغاية، فحاول أن يستجلي المعاني الكامنة وراء الألفاظ ، وأن يستنبط الفوائد الدقيقة التي ترمي إليها الآيات، كل ذلك في أسلوب علمي أدبي لا يمل منه قارئه، ولا يكل سامعه ، وأرجو أن أكون قد وفقت فيه، فإن كان من زلل، فالعفو من الله تعالى مأمول، ولن يضن به ربي على محسنٍ لقصده، مهما زلت به قدمه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

أهم المراجع:

١- القرآن الكريم – جل من أنزله
٢- جامع البيان محمد بن جرير الطبري
٣- تحقيق كلمات القرآن للمصطفوي
٤- تفسير القرآن الحكيم المسمى "المنار" – محمد رشيد رضا
٥- تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير
٦- صحيح البخاري
٧- صحيح مسلم
٨- فتح الباري
٩- معجم مقاييس اللغة
١٠- مفاتيح التفسير
١١- المفردات في غريب القرآن للراغب
١٢- لسان العرب

محتويات البحث